(غرائب المكتوبجي)... كاريكاتورية الرقيب

د. سهام جبار

كتاب (غرائب المكتوبجي) سجل من نوع خاص لمرحلة مبكرة من مراحل تشكل الوعي العربي، الا انها مع الأسف مرحلة مزاحة عن خلق تأثيرها المفترض امتداده، فهي منقطعة عما ترتب لاحقاً من اعتبارات في العمل الصحفي والأدبي والثقافي عامة، ولربما يكون لذلك معناه في اختيارات مؤسسة المدى التي تعمل لاشاعة هذه الثقافة المنسية، لكنها من جانب آخر مدعوة لان تقدم نتاجاً عراقياً مبكراً مهماً في طروحاته وافكاره لربما على كثير من المهتمين استكشافه الآن.

ان ذلك له نصيب مهم في تحقيق الاكتشاف لجماهير شبابية سادرة في جهلها ولربما انصرافها أيضاً بعد ان مررت عليها اشعة تجهيل وعزل طوال عقود عن مدار التفكير وملهمات الفعل والمعرفة.

وأعود الى الكتاب الذي يقدم مظاهر من الصراع مع سلطة الرقيب الذي اتخذ اسم (المكتوبجي) والذي وضعته الحكومة العثمانية على الجرائد الصادرة في البلاد التابعة لسلطتها. ولمراقب الجرائد هذا وضع خاص تمليه مصلحة الخلافة العثمانية، التي تتناسب مع اجرائية تفترض المنع وتقدمه لايما سبب كان حتى ان كان مزاجاً او لظنون لا تخطر لبال فتفاجئ المؤلف سليم سركيس فيضع الرسم الكاركاتيري اللائق بها بحذق وتمرس على السخرية والتندر على السلطة الجاهلة الحذرة.

مسحة السخرية ظاهرة في الكتاب، وممتعة في جرأتها وفي نسق الجملة المهذبة القصيرة التي هي جملة مثقفة تراثياً الا انها غير منغمسة ببلاغات التراث وفصاحته المتعالية، ولعل ذلك اثر من اثار ممارسة الصحافة التي تشذب وشذبت لغة نهايات القرن التاسع عشر فضلاً عن الترجمة التي يحدق بها سليم سركيس ايضاً كما فهمنا ذلك مما يذكره هو نفسه وسنمر عليه. تبدأ الجرأة باهداء الكتاب الى جلالة السلطان عبد الحميد الاعظم (مولاي يسوؤني انني من جملة رعاياك لانه يسوؤني ان اكون عبداً. وانت عودتنا انك تعتبر الرعية في منزلة عبيد لك بدلاً من ان تتبع الحقيقة وهي ان تكون عبداً لنا. ولما كنت لا استطيع التخلص من هذه التابعية فعلى الاقل احاول ان اعلن للناس انني عبدك رغماً عني وهذا كل ما استطيع ان افعله الآن)).

لم امنع نفسي من مقارنة سلطة المكتوبجي بسلطة المحرر البعثي الذي قاد تحرير صحف عراقية زمن النظام الغابر، وكم كان الفارق هائلاً بين حرية سليم سركيس التي تناوئ وتعرض وتضحك او في الاقل تحاول ان تضحك من سلطة الرقيب، وعبودية كل من عمل في الصحف البعثية العراقية وان كانت العبودية عند كل منهم درجات، فهناك العبودية المطلقة التي تتخذ مظهر السلطة المطلقة ازاء التابعين فهو دكتاتور صغير مقابل للدكتاتور الاكبر وخانع مطلق للأوامر التي لا ينبغي ان يفرط في ايما تفصيل صغير فيها، والا سينتهي رغم كل امتثاله القديم وخنوعه الى مصير اسود. وهناك عبوديات متأرجحة في ازدواجية شخصية ظاهرة تحت احد طرفيها مشاعر سخط وضيق مكبوتة فيما يجاري الطرف الاخر لقمة عيشه بانغماس كامل وبتلفت حذر وتوفيقية لازمة. لم يمنع ذلك وجود أساليب رفض تعتمد التورية والمجاز والرمز فكان الغموض والتصوير الحلمي محاولات ممكنة للتحرش بالسلطة ولو بالقليل الممكن او بأضعف الايمان، او الانقطاع والتفريط بكل المعادلة من اجل الخلاص . والخلاص بالصمت خاصة ممن بقي في الداخل سلوك معارض له مردودات على درجات هي الاخرى، مردودات من المحاسبة او الخسران او فقدان الأدوات و الوسائل الكتابية التي لابد لها من الاستمرارية ليزداد توهجها ويكتمل نضجها.

يكشف سركيس عن مقدمات وعيه ومصادر معرفته ومن ثم الطابع الذي اتخذته شخصيته الصحفية بعد ان حظي بما سماه نكبات، نكبة ولادته في بيروت فصار من رعايا الحكومة العثمانية وهذه أنكى المصائب وأولاها، ونكبة انه أرسل الى المدارس فتعلم ونشأ وعيه الشقي، ونكبة تعلمه اللغة الانكليزية فتغذى عقله لمبادئ التقدم والحرية ، ونكبة عمله في الصحافة من دون ان يستعمل الحرية في ادارة الرأي العام الذي يتوجه اليه. والنكبة الخامسة كما يقول انه رحل الى أوربا فقويت آماله في الحرية، والنكبة السادسة انه اضطر الى العودة الى بيروت وتحرير جريدته تحت ضغط المكتوبجي وظلم الحكومة بعد ان تذوق حلاوة الحرية. ولو قيض له ان يعيش في العراق زمن الدكتاتور لوجد ان نكبة واحدة كانت ستكفيه لينتهي من دون أي اعلان وجود في كتاب كالذي قدمه، لان تطور قدرات عوامل الكبح والمراقبة التي نشأت في انظمة ادعت الاستقلالية وحرية الانسان لتحصل على السلطة فامتلكت وسائل متقدمة في حجب حرية الآخر، بل حجب الاخر تماماً عن الحياة ان اقتضى الامر، وما اكثر ان اقتضت السياسة الصدامية قتل كل من عداها.

ان تاريخ الديمقراطية في بلدان العالم المتحضر تاريخ تقدمي، لم تحدث فيه النكوصات والادعاءات والمراوغة الموجودة في تاريخنا، لذلك فان كتاب (غرائب المكتوبجي) لسليم سركيس وثيقة دالة على حرية ممكنة في رفضها للسلطة، الا انها لم تستدع سياقاً متنامياً في تعزيز هذا الرفض للسلطة، لان مراحل تاريخ البلدان العربية مراحل مغلقة على ذاتها محجوبة عن الاستمرار في نهج واضح ومحدد. فكل مرحلة حكم سياسي تنفي عنها ما قد بدأ أو تشكل في المراحل السابقة. وبين نفي وادعاء بداية ظلت اعمال الكتابة المختلفة ومدارات الفعل الديمقراطي تتراكم من دون تفاعل لان تراكمها مشتت ومهدور غير قابل لان يكون تراكماً ايجابياً فيخضع لقانون ان التراكم الكمي يؤدي الى تغيير نوعي .

لم تكن (غرائب المكتوبجي) لتنقل لنا معارضة فاعلة ففي الكثير الاعم كانت قضية سركيس قضية تأسيس للعمل الصحفي الذي ينبغي ان يسير على قوانينه الصحيحة، فقد كان المكتوبجي يكسر قواعد التاسيس هذه لرفع شان سلطاته المعلاة ومحرماته التي تحرس وجود السلطان الى جانب الدين الذي هو هنا راع طيب لمبرر وجود السلطان، والمزاجية المغفلة او النزقة التي يظهرها المكتوبجي هنا وهناك، مما يستدعي اظهار نكات وطرائق ساخرة مما يأتي به قلم المكتوبجي وهو يحجب هنا، أو يلغي هناك، او يتحكم بالمسودات المرفوعة اليه لتنال اجازة ظهور الصحيفة.

في الكتاب قصص طريفة تحمل طابع القرن الماضي في بداياته وبعضها يرسم بيئات وشخوصاً ومعالم اوربية وليس هذا ببعيد عن ثقافة الكاتب ومصادر اطلاعه.

ثمة صراع بين الشرق والغرب، انغلاق الشرق وانفتاح الغرب على الحياة يكشفه اهتمام المؤلف بكسر حدود الممنوع لفسح المزيد من الاطلاع على ما في الحياة الاوروبية من ممكنات فضلاً عن ابداء الرغبة في انصاف الاسلام مما لحق به من المنتفعين ببعض احكامه مما درج عليه الحكام من التمتع بالسلطة محتجين بما يسعفهم ايراده من الآيات القرآنية مستغلين فيها أن (القرآن حمال اوجه) فذهبوا الى الوجه الذي يريدون بأقصى موارد الشراهة والطمع بسرقة الشعوب والتسيد عليها.

لذلك فأن لسركيس فضله الذي آن للوعي العربي ان يأخذ بثمرته الى جانب ثمار الحرية التي قدمها رعاة العقل والتفكير ممن ينبغي تمييزهم والافادة من نتاجهم.

(مساء الاحزان)

شعر- موفق محمد

إلى المبدع ناجح المعموري

في ساعة متأخرة من الليل الطويل الذي كان يلف العراق
دخلت غرفتي وعلى ضوء الفانوس قرأت:
أنا وحيد ومكتئب
شربت محاصراً بصمت موحش
وبمكان لإملاذ فيه لغير الجنون والخوف
أنا ذاهب الى البيت
لأستكمل موتي المتبقي
كي أسمع صوتاً لأمرأة او لطفل
او على الأقل لأسمع صوتي انا
أنا غادرت غادرت
لأرى الناس في الخارج

أخوك
ناجح المعموري الخميس هكذا
بلا تأريخ

فكتبتُ:
لقد رتبتُ عش البوم في رأسي

منذُ ان تيقنتُ
بأن قلبي لا يصلح إلا لميتٍ واحدٍ
.....
رفقاً بالصمت الصاخب في أرجاء البيتْ
رفقاً بأنين يتخثر في شفة الميت
وأنظر للموتى من خلف حبال الحلبة
لا تلمس أحداً
فاللحم رماد
رفقاً بالاشجار الموصوفة كالعكازات
على أجساد الطرق الملغومة
تنتظر الريح العمياء
رفقاً برؤوس تترنح فوق الرقبة
وبشمس لا تعطيك صباحاً خيط ضياء
رفقاً بحمار أدماه السوط مراراً
وتبسم تحت لجام العربة
لستِ أنا المبتسم
رفقاً بالمجنون اللاهث في كل زوايا الموت
ولاتقترب الليلة من سورته
من أين اتيت؟
وكيف ستخرج من هذا البيت المتزمل بالخوف
رفقاً بالقمر النازف فوق غيوم سودا
رفقاً بالبوم العازف
هل عاد أبي ؟
ام هل عادوا ؟
وبماذا يتغنى هذا اليوم ؟
فأنا مجنون حد الموت لغيبتهم
ياللوحشة
باتوا على حد الأسى
ما بين لو وعسى
ما عدنا نعرف من منا الميت
مذ كفننا الخوف
فمن أين أتيت ؟
وكيف دخلت الى هذا المجنون بلا سبب
والجنون بلا سبب
من قلة الخيل شدوا السروج على الكلاب
هل عاد أبي ؟
أم هل عادوا ؟
بعيون مسمولة
وقلوب كالزئبق
وأياد مشلولة
خذ نصف الربع الباقي من خمرتك المزوجة بالرعب
واتركني
جفت كل كريات دمي
واسمعها تساقط في قاع الروح

فمن للجالس في ثقب الأبرة
قلت: دع الخيط يمر
مر الخيط وصار حبالاً لا تأكل إلا من حبل وريدي
ونشيدي سوط مختص في طرد القلب الى منفاه
رفقاً بعظام مزدوجة
يثقبها الهم
وتوأمها القير
لكي ينفخ فيها اليوم وتكتمل الآه
.....
وقلتَ: أجلس قرب الجسر
وتأمل نهراً تستجدي الخبز نوارسه
فرأيت النهر أسيراً
والنخل كسيرا
فمن أدخل عمتك النخلة في
غرفة ناكحنا الدولار؟
النخل يقذف بالحصى
والجوع يحصد
بالمناجل
هل عاد أبي؟
أم هل عادوا ؟
من أين سنفتح
قيد الموج
لكي نعرف اسماء
القتلى
فالموجة شاهدةٌ
أبدية
.....
من هذا السابحُ ضد
التيار على امواج من نار
؟
ويزعزعُ هيبة هذا الزمن
المشحون بزوبعة الموت إذ ليس
جديراً بالجمعة إن تلد السبت
وعليها ان تتناسل بالمقلوب
هل عاد ابي؟
ام هل عادوا بكؤوس الموت المنتخبة؟

كلُ غروب
يتلألأ نجم فوق العتبة
فأرى أمي تسبح في دمع اسود وانين مكبوت
وتحلم ان تسمع وقع خطى
ترنو في عين ضارعة
والدرب صموت
فتقوم كمئذنة تساقطُ
كي تدخل في بَطنِ الحوت

(اوشارك) تأملات الشايب

باسم عبد الحميد حمودي

(الاوشارك نظام كتابي ابتدعه الكتاب الروس خلال الحرب العالمية الثانية وهو مادة ادبية درامية بين التحقيق الصحفي- الريبورتاج- والقصة القصيرة الطويلة)

-١-

صعد باء السلالم متعبا وعلى كتفيه أعوامه التي تعدت الستين بسبع سنوات وعندما استدار عند صحن الدرج العريض في ذلك البيت البغدادي الأنيق وجد شابين.. فتى وفتاة يجلسان على واحدة من درجاته العريضة قاطعين الطريق على الصاعد والنازل من دون ان يهتما باحد و... فقط يزور كتف البنت عند نزول احد من جانبها ويتحرك كتف الولد نحوها عند صعود انسان .. وقف (الشايب) امامهما من دون ان يتحرك .. باسما لاهثا وهو يستذكر سنواته.. قام الشابان وسحباه من موقعه الى الدرجة التي حطا عليها .. صار في وسطها وابتسم الجميع.. ثم سمحا له بالصعود.. ببطء وحذر وجلسا من جديد .. من الصاعد ومن النازل ؟

-٢-

أبلغته حفيدته ان الاستاذ (....) طلبه مراراً عبر الهاتف، كان قد وصل الدار تواً فجلس على الكرسي المواجه للهاتف وهو يقول (انه مازال يتذكر ربعه... الحمد لله) وحاول ان يتذكر رقم هاتف صديقه فلم يستطع .. نسيه لعدم الاستخدام فقد انقطع عن مهاتفته منذ سنتين .. ربما اكثر.. جاؤوا له بدفتر الهواتف الخاصة به.. وزول الرقم الذي امامه وطلع له صوت من الهاتف "مساء الخير".. (عمو ..) الدكتور خالد موجود؟" قال له الشاب الذي كان على الطرف الآخر "منو يتكلم؟" قال: "انا فلان" اجاب الشاب: "عمو صاحبك تويج منذ اعوام وانا من استقبلك في مجلس فاتحته" اعتذر من الشاب واغلق سماعة الهاتف ثم انصرف الى صمته.. "ما بي .. ما الذي فعلته؟.. كنت اريد ابا ياسمين .. كيف اتصلت ببيت خالد؟" قلب أوراق دفتر الهواتف .. وجد الأسماء تتقاطر امامه.. علي جواد الطاهر.. موسى كريدي.. نعمان مجيد .. محمود جنداري.. نزار عباس ومعهم ياسين النصير ، محمود سعيد ، محسن الموسوي، علي العلاق، حاتم الصكر. أسماء رحلت واسماء مازالت حية مشرقة انما في أمكنة اخرى من هذا العالم.. اغلق الدفتر وقد لمع رقم صديقه في ذهنه وعندما أدار رقمه.. اغلق السماعة فجأة ثم قام من مكانه وهو يقول لنفسه.. لا فائدة لانصرف عن الخارج الى الداخل واسرع الى حفيدته يقبلها وانصرف الى مكتبته وهو يطلب فنجان قهوة ليبدأ عملاً لم يتمه وهو يهمس (علي ان أكمل ما بدأت فالزمن يمضي).

هذا هو مكان (السنتر)القديم..ذلك المعهد الذي قضى فيه سويعات طيبة بين الكتب والموسيقى ودرس فيه الإنكليزية لشهرين مكثفين، مكان لقاء الطلبة والعسكريين المتقاعدين في الخمسينيات.. تحولت الدار الى شيء هلامي متكسر.. ومضى ما شيأ في ذلك الشارع الذي هجره اهله .. هذا هو بيت الوزير السابق.. لافتة معلقة على جداره الخرب تتحدث عن ملك عاد الى اهله .. مكان القسم الداخلي لبنات (العالية) تحول الى ارض مكروبة بالبلدوزرات.. ومكان دكان مختار (العالية) صار قاعا صفصفا.. هل يدخل الى الشارع الذي يؤدي الى نادي الكلية الذي كان ام يتحرك الى داخل البناية؟. قرر الثانية فاصطدم بالحرس الجامعي. شاب يرتدي ملابس غريبة ويسأله "عمو وين تريد؟" ابتسم بوجهه مبتعداً وهو يتطلع الى بنايات كليته التي تحولت الى معهد صغير وهو ينظر الى قاعات درسها وشوارعها الداخلية وقد ايقن ان كل شيء قد تغير وان من يريد ان يسأل عنهم قد رحلوا عنها منذ سنوات واستمر في مشيه وهو يستمع الى كركرة طفل تقوده حسناء.